

الاتجاه القومي للتعليم عمل واجب بعد الاستقلال

بقلم الأستاذ سيد قطب

في العهد الذي كانت مصر فيه خاضعة لسلطة الاحتلال التركي أو الانجليزي لم تكن للتعليم أهداف قومية . وكان هذا طبيعيا معقولا .

ولكن هذا العهد قد انقضى بعد تغير موقف مصر السياسي .

فاذا صنعنا نحن لنلائم بين اتجاه التعليم في المدارس واتجاه البلاد في طريقها الجديد ؟

لم نصنع أكثر من ترقيع البرامج والنظم ، وزيادة بعض مواد الثقافة ، وتعديل بعض طرائق الدراسة ، بينما بقي الأساس الموضوع من قبل دون تعديل أو بتعديل خفيف يس العرض الظاهر دون الجوهر الأصيل .

هذا الترقيع في النظم والبرامج جاء مغلا وضارا ، فلم يبق على النظام القديم الذي كان منطقيا مع عصره ، منطقيا مع أغراضه ، مؤديا إلى أهدافه ، ولم يستحدث نظاما جديدا يكون منطقيا مع العصر الجديد مؤديا إلى أهدافه الجديدة .

كثر التغيير والتبديل ! وكثر رسوب التلاميذ وشكواهم ، وكثر المتعطلون من المتعلمين ، وكاد النظام الاجتماعي يضطرب بسبب هذا التعطل ، واضطرب النظام الاقتصادي عملا ، ولم تريج القومية المصرية شيئا من وراء النظام المرقع البديل .

ولست هنا في مقام بيان عيوب التعليم عامة وأثرها في الأوضاع التي نشكونها الآن وعلى من يريد الاستعادة في هذا الموضوع أن يقرأ تقرير وزير المعارف عن عيوب التعليم الثانوي ، وكتاب الدكتور حافظ صفيى باشا " على هامش السياسة " وكتاب الدكتور

طه حسين بك المستشار الفنى لوزارة المعارف "مستقبل الثقافة" وكتاب مريث بطرس بك "سياسة الغد" وكتاب الدكتور على عبد الواحد وافي "البطالة" وكتاب الأستاذ عبد الخيد فهمى مطر "التعليم والمتعلمون فى مصر" وسواها من الكتب والتقارير والمقالات .

إنما أريد فقط أن أتحدث عن نقص الاتجاه القومى فى المدرسة المصرية وفى وسائل الثقافة المصرية من صحافة وإذاعة ومسرح وسينما .

وحين يكون على رأس وزارة المعارف نجيب الهللى باشا صاحب التقرير المعروف ، وعلى يمينه مستشارا فنيا ، الدكتور طه حسين بك صاحب الكتاب المعروف ، نتأثر أن يصنع شئ فى هذا الشأن غير ما صنع من قبل ، وأن يوضع للتعليم أساس جديد كامل .

وقد نشر المستشار الفنى لوزارة المعارف منذ سنوات كتاب "مستقبل الثقافة" ، ونحن نرتضيه دستورا للثقافة يجب تنفيذه فى عهد الاستقلال .

وهذا الكتاب مرصود كله للدستور الثقافى فى جميع مراحلها ، ولكن به صفحات كاملة من الشعور القومى وضرورة بثه فى نفوس الناشئة ، ضمانا للاستقلال ، وللديمقراطية التى هى الثمرة الداخلية للاستقلال ، فلنتوقف بعض الفقرات من هذه الصفحات .

يقول فى صفحتى ٧٧ و ٧٨ من الجزء الأول : "نحن إذا فكرنا قليلا اتهمنا إلى أن من أوجب واجبات الدولة المصرية فى عشرات الأعوام المقبلة — أن تحوّل الاستقلال الخارجى ، وأن تقر النظام الديمقراطى فى داخل الحدود المصرية . ومهما يكن جهد الأفراد فى حياة الاستقلال وتثبيت الديمقراطية ؛ فإن هذا الجهد ليس شيئا بالتياس إلى الجهد الذى يجب أن تسدّه الدولة ؛ لأن الدولة أقدر على ذلك وأنفذ إليه وهى لم تقم بعد إلا له .

"وإذا كان أهم أعمال الدولة أن تحوّل الاستقلال الخارجى ؛ فإن الوسائل إلى حياة هذا الاستقلال هى من أول واجبات الدولة ومن أهم أعمالها . وأى وسيلة إلى حياة

الاستقلال تعدل هذه الوسيلة الأساسية. هذه الوسيلة الأولى والأخيرة؛ وهي تنشئ الطفل المصرى والفتى المصرى على حب الاستقلال والتضحية بالنفس في حياته والذيادة عنه ؟

” وإذا كان من أول واجبات الدولة أن تمهي بعض المصريين من بعض ؛ وأن تكفى بعضهم شر بعض ، وأن تكف بأس بعضهم عن بعض ؛ وأن تقر فيها العدل والأمن ؛ وتحقق لهم المساواة وتكفل لهم الحرية . إذا كان ذلك كله من أول واجبات الدولة وأهم أعمالها ؛ فإن الوسيلة الى هذا كله من أول واجبات الدولة وأهم أعمالها . وأى وسيلة الى تثبيت الديمقراطية تعدل هذه الوسيلة الأساسية؟ هذه الوسيلة الأولى والأخيرة وهي تنشئ الطفل المصرى والفتى المصرى على أن يحب مواطنيه ، ويؤثرهم بالخير ، ويضحى بنفسه في سبيل حمايتهم من الشر وحياتهم من الظلم ، ويشعر بأن عليه واجبات قبل أن تكون له حقوق ؟ “

فهل مما يكفل تنشئة الطفل المصرى والفتى المصرى على حب الاستقلال والتضحية بالنفس في حياته والذيادة عنه ، أن يتضمن برنامج المدارس الابتدائية في مادة التاريخ موضوعا عن : ” مزايا الحملة الفرنسية على مصر “ ومثله من الموضوعات .

جائز أن تكون هذه الموضوعات ، مما يدرس في عهود خاصة ، لتؤدى الى هدف مقصود ، لما الذى يميز لها أن تدرس في عهد الاستقلال للتلاميذ الصغار ؟

وجائز أن تكون هذه حقائق تاريخية ، أو أن تكون ادعاءات مقصودة للدعاية ولكنها فى كلتا الحالتين لا يجوز أن تدرسها ناشئة البلاد في صورتها هذه ، ويجب أن تؤجل الى مرحلة الجامعة عند التحقيق التاريخي . أما عهد الطفولة وعهد الشباب ، فيجب أن ينقضيا فى تلقين الأطفال والشبان حقائق أخرى تصور الأجداد المصرية ، وتملا نفوسهم بالعزة القومية .

وليس ما ذكرت إلا مثلا من أمثلة كثيرة فى مادة التاريخ وحدها — وهى أهم المواد التى يعتمد عليها فى ” تنشئ الطفل المصرى والفتى المصرى على حب الاستقلال والتضحية بالنفس في حياته والذيادة عنه “ .

فهل شئ من هذا كله يساعد على تنشئء الطفل المصرى والفتى المصرى كما ينبغى ؟ !

وليس شئء فى برنامج الدراسة الحالى مما يبعث الشعور القومى ويمجى فى نفوس الناشئة فالتاريخ المصرى ضائع بين تواريخ الأمم الأخرى ، ولا يشعر الطفل والفتى أنه تاريخ وطنى تبذل له عناية خاصة ويوجه توجيهها خاصا ، والجغرافية المصرية سريعة خاطفة مدغومة فى الجغرافية العالمية ، لا يحس معها الطفل والفتى أنها جغرافية بلاده وأنها يجب أن تتمتع بانتباه خاص ، والمجتمع المصرى الذى يطلب مؤلف " مستقبل الثقافة " أن ينشأ الطفل المصرى والفتى المصرى على حبه والنضحية فى سبيله ؛ لا تأتى سيرته إطلاقا فى برامج الدراسة ، ولا ينشأ الطفل والفتى على الشعور بوجوده مجرد الشعور ! .



يجب إذن أن يقام التعليم وأن تقام التربية على أساس جديد ، ونضرب هنا بعض الأمثال فى بعض مواد الدراسة ، وبعض وسائل التربية .

فى التاريخ نرى أن الكتب التى بأيدى تلاميذ المدارس اليوم عن مصر يجب أن تترع وتلقى بعيدا عن متناولهم حتى لا تشوه لهم تاريخ بلادهم ولا تحيله جامدا ميتا لا روح فيه ، وحتى لا تتحاق بينه وبينهم جفوة توصل نفوسهم دونه كما هو حادث الآن ، إذ أن مئات الأسماء للولك والحوادث الحربية وللأمكنة وللتواريخ الرقمية التى حدثت فيها تصد الناشئ عن هذا التاريخ وتكرمه فيه لأنه واجب تقيل لا حياة فيه .

يجب إذن أن تخفى هذه الكتب المؤذية ، واختفاؤها هو واجب وطنى قبل أن يكون واجبا علميا .

فإذا منعت دراسة هذه الكتب ، فيجب أن تحل محلها كتب أخرى متدرجة حسب مراحل الدراسة ، فى المدارس الابتدائية تستبدل بها كتب قصصية عن حياة المصريين تصور هذه الحياة تصويرا صحيحا ، وتشتمل على عاداتهم وتقاليدهم وبعض عقائدهم وأناشيدهم ، حتى تتجسم فى هذه المخيلات الصغيرة صورة شاخصة لمصر لا أثر فيها للسرد المملول ولا للتواريخ الرقمية للحوادث إلا ما تيسر فى ثنايا القصص المحبوبة .

والمدراس الثانوية تدرس سير بعض الأبطال القدماء والمحدثين بحيث تشمل هذه السير تاريخا للحوادث في عصرهم ووصفا لحياة الشعب وبسطة لعاداته وتقاليده وديانته وكثير من أناسه في مواسمه وأعياده ؛ ودرس السير الشخصية من الأذ وأمتع الدراسات ، وهو فرصة لتصوير حياة الشعوب وحوادثها في خلال حياة الشخصية المدرسية ، وهو في مرحلة التعليم الثانوي بالذات — مرحلة المراهقة — أنسب طرق الدراسة وأبعث ما يكون لخياهم الخصب وعواطفهم المشبوبة و متعدداهم للتشبه بالأبطال ، ولا سيما حين يكون هؤلاء الأبطال من دمهم ومن سنصرهم .

وفي التاريخ المصري كثير من الأساطير ؛ فحول هذه الأساطير وحول الحوادث التاريخية وحول الأشخاص الحقيقيين والوهيين ينبغي أن تحاذى القصص والروايات والأفلام ، ويوضع ذلك كله في متناول التلاميذ والطلاب حسب أعمارهم وتقافتهم ، للقراءة والمشاهدة والتفكير .

وهذه الآثار والتماثيل والنقوش يجب عقد الصلة بينها وبين نفوس التلاميذ والطلاب بتكرار زيادتها وشرحها شرحا وافيا ، وحينئذ تنقلب هذه المخلفات الجامدة حية نابضة تحدثهم عن نفسها وتقص عليهم تاريخها : وتثير الروابط الكامنة بينهم وبينها . فتعيش في أوهامهم عيشة الأحياء المبعوثين .

فاذا تجاوزنا مرحلة العهود الفرعونية فيجب أن تتجه الدراسة إلى وضوح الشخصية المصرية حتى في عهود الغزو والاحتلال ؛ وإني غلبة هذه الشخصية على شخصية الفاتحين ، وإلى أمر الروح المصرية والعقائد المصرية والأساطير المصرية في كل ما دخلها من فسفات وثقافات .

وبهذا يصبح التاريخ المصري متسلسلا ، وتصبح مصر شخصية حية في وهم كل تلميذ ويمس أنه اليوم ليس غريبا عن تحتس ورمسيس ، ولا غريبا عن الأقوم الذين عاشوا فوق هذه الأرض الخالدة منذ أقدم عصور التاريخ .

وفي المكتبة العربية اليوم كتاب يؤدي إلى هذه الغاية أحسن أداء وهو كتاب المرحوم عبد القادر حمزة باشا " على هامش التاريخ المصري القديم " .

وفي الجغرافية : يجب أن تدرس الرقعة المصرية والبيئة المصرية بتوسع : طبيعتها وجوها وحيوانها ونباتها وترتيبها وكل شيء فيها ، وأن يربط بينها وبين التاريخ القديم والحديث وأن يزور التلاميذ أكثر ما يمكن من الأماكن والجهات التي يرد ذكرها في أثناء الدراسة . وينبغي أن تكون الرحلات والسياحات جزءا أساسيا من البرنامج . ويجب أن يكون للإيحاء قيمته في أثناء دراسة الرقعة المصرية وما يتصل بها من الشرق والغرب مما أثر فيها وتأثيرها من البلاد ، وأن ينصب هذا الإيحاء على تجسيد تلك الرقعة وذكرها في شيء من التقديس والتبجيل كأنها بلاد مقدسة في القلب واللسان . ويجب ألا يوجد ذلك الفاصل بين دروس التاريخ ودروس الجغرافية ، وأن يختلطا في جميع المراحل بقدر الإمكان .

وفي اللغة والأدب : يجب أن تعطى الفرصة كاملة في مرحلة التعليم الابتدائي للغة القومية — وبهذا "يشير" مؤلف "مستقبل الثقافة" وهو اليوم "مستشار" الوزارة . ولعل من الحق أن نقول : إن عقبة ستعترض المستشار الفنى في الطريق. هذه العقبة هي أن قصر المرحلة الابتدائية على اللغة القومية ، سيوفر عددا من مدرسي اللغة الانجليزية في هذه المدارس ، وهذه عقبة تعد في وزارة المعارف كأداء لاسبيل إلى اجتيازها ؛ وسيدافع عنها كثيرون لاعلى هذه الصورة ولكن بماذير أخرى ، فعمل الله أن يوفقه إلى استخدام هؤلاء المدرسين الذين سيزيدون على الحاجة في مواد البرنامج الأخرى ، فتحل هذه المشكلة ، ويفتح للغة القومية من الوقت والجهد ما يؤصلها في ثقافة التلاميذ .

أما الدراسات الأدبية فيجب أن تعنى بالأدب المصرى قديمه وحديثه ، وأن تبرز فيه الخصائص المصرية التي خلقتها البيئة المصرية والروح المصرية على اللغة العربية وآدابها . ويجب أن يشعر الطالب أن بلاده لا تكفى بتلقى الآداب والثقافات والفلسفات ، إنما هي تمصرها ، وتخلع عليها ثوبها ، وتؤثر في كيانها واتجاهها ، وأن يبرز ذلك كله بروزا كافيا .

وفي الحساب : يجب أن تصاغ رءوس المسائل على المبادلات المصرية الحقيقية ، وأن تكون ذات قيمة عملية في تعريف التلاميذ طرق الحساب التطبيقية في السوق المصرية ؛ وأن تبعد عن الفروض المستحيلة كمسائل الأحواض والخففيات والبالوعات : الخففيات التي تصب في الأحواض بمعدل كذا في الساعة والبالوعات التي تفرغ هذه الأحواض بمعدل كذا في الساعة فإذا فُتحت الخففيات والبالوعات فبعد كم تمتلئ . . . الخ !

وفي التربية الوطنية والاجتماعية : يجب أن يعلم التلاميذ هذا الذي يقوله الدكتور طه حسين بك من أن الطفل المصرى والفتى المصرى يجب أن "يحب موطنه ويؤثرهم بالخير ويضحى بنفسه فى سبيل حمايتهم من الشر ، وحياطهم من الظلم ، ويشعر بأن عليه واجبات قبل أن تكون له حقوق " .

ولن يعلم الطالب المصرى شيئا من هذا وهو يدرس تلك النصوص الخافتة الجامدة باسم التربية الوطنية ، وهو لا يدرس شيئا أصلا عن الشعب المصرى والمجتمع المصرى ، وهو لا يعرف شيئا عن طبقات هذا المجتمع وتوزيع الثروة فيه وآلامه وآماله ، وعلاقة الفرد بالمجموع ، ومسائل الخدمة الاجتماعية... إلى آخر هذه المعلومات التى تشعره أن خلف جدران المدرسة مجتمعا ، التى تثير فى نفسه حب هذا المجتمع والعطف عليه والتجاوب معه والعمل لخيره ، والتطوع لخدمته .

ثم يجب أن يخلع على كل ما هو مصرى ثوب الإعزاز والإكبار ، وأن يحرم كل ما يחדش الشعور الوطنى أو يوحى بأن هذا الوطن أقل من الأوطان الأخرى فى شىء ما من خصائص الحياة ، وأن يراعى ذلك فى كل ما يقرؤه التلاميذ أو يشاهدونه فى المسرح والسينما أو يسمعونه فى الإذاعة بكل وسائلها .



هذه أمثلة من وسائل تربية الشعور القومى ، وتوجيه التعليم هذه الوجهة ، وهى أمثلة مجملة قصدا منها الإشارة السريعة لا رسم خطة مفصلة . وكان حديثنا حتى الآن مقصورا على مراحل التعليم غير العالى أما الدراسات الجامعية والعالية ، فوسائلها إلى هذه الغاية أكثر عددا وأوسع مدى . ومتى تم وضع الأساس فى المراحل الأولى ، سهلت إقامة البناء فى المراحل الأخيرة . وفى اعتقادنا أن التعليم فى المدارس سيبقى بلا هدف ولا ثمرة ، حتى ترسم سياسة إنشائية متحررة من أفتال الماضى ، تآثرة على "نروتين" الديوانى والاجراءات الحكومية .

وفى وجود القائمين على شئون التعليم الآن ما يكفل الثورة والتحرر ، وما يضمن هذا الاتجاه الجديد ، وهو ألزم من النظر فى أشياء أخرى كثيرة تشغلهم عن هذا العمل القومى الباقى للأجيال .